مع المعري في "اللزوميات"

الدكتور إبراهيم السامرائي

لقد اختلف الدارسون في النظر إلى "اللزوميات" فالذين نظروا إلى الشعر نظرة العاطفة والصورة الفنية والإعراب عن ذلك برشيق اللفظ والعبارة الموحية والإيماءة البعيدة والقريبة لم يجدوا حاجتهم في هذا الفن الذي قسا فيه حكيم المعرّة على نفسه فركب الصعب فكان له أن "التزم بما لا يلزم". وذهبوا إلى أن الفكر والرأي والحكمة والوصول إلى غرائب المعنى مما لم يكن في دائرة ما يدركه أهل الأدب غير قريب من فن الشعر الذي يجدونه في شعر جمهرة من شعراء العرب.

غير أن الذين ذهبوا إلى غير هذا فآثروا الفكرة والمعنى والرأي في خطرات العقل وما يصل إليه في فوائده مما يكون في التأمل والقراءة والاطلاع، لا يعطون ما اتصل بالعاطفة من حديث النفس وهوى القلب قيمة كبيرة، ومن هذا ذهاب الأستاذ كامل كيلاني في "مقدمته" لهذه النشرة من "اللزوميات" إلى نعته شعر المعري في "سقط الزند" بالهذر والعبث. وإني لأعجب كيف يسوغ لرجل حُمل على العربية أن يقول مثل هذا، فكيف يكون الأدب الإنساني بما فيه من صدق ووفاء، وهو ذاك الذي كان من المعري في "سقط الزند" هذراً؟ فكيف لنا أن نسم قصائده العاطفية بـ"الهذر والعبث"؟ وأين العبث في قصائده التي أنشدها في بغداد؟ وكيف لدارس أن يقول إن المعري من أهل الهذر وهو يتلو قصيدته التي مطلعها:

يا ساهر البرق أيقظ راقد السَمَرِ لعلّ بالجزع أعواناً على السهرِ

والتي قال فيها:

ويــا أســيرة حِجَليهــا أرى ســفهاً حملَ الحُليّ لمن أعيا عن النظرِ

---

(١) اللزوميات لأبي العلاء المعرّي، حققه أمين عبد العزيز الخانجي (منشورات مكتبة الهلال ببيروت ومكتبة الخانجي في القاهرة). وفي هذه النشرة الكثير مما يقال، وليس من غرضي أن أعرض لهذه الأمر.

لو حطَّ رَحْليَ فوق النجم حامله وجدتَ ثَمَّ خيالاً منك منتظري

وأين "الهذر والعبث" في قوله وهو متَشوق إلى "المعرّة":

فيا بَرقُ ليس الكرخ داري وإنما رماني إليها الدهر منذ ليالِ
فهل فيك من ماء المعرّة قطرةٌ تبُلُّ بها ظمآنَ ليس بسالِ

وأعود إلى "اللزوميات" فأجد المعري قد أراد أن يوسع دائرة الشعر لتضم خطرات الفكر وسعة في النظر إلى ما حوله من ملل ونحل وعادات وأوابد، وأنت تلمح في كل ذلك سعة معارف الرجل في علوم عصره وما ورثه العصر من معارف قديمة وحديثة.

وهو إلى جانب هذا كله ناظر ناقد يقر ويرفض ما بدا له واهتدى إليه فهمه.

وقد تعجب أن يكون قد عرض لجملة هذه المعارف في نظمه هذا الذي دعاه "لزوم ما يلزم" فشق على نفسه وتكلف العناء، والصنعة لدى المعري جهد مضن كلّفه ما لم يعرض لأي من أصحاب صنعة النظم.

وهو في هذا يعتمد على ما توفر له من معين لا ينضب من معرفة لغوية واسعة. هذه المعرفة لا تتجاوز استيعابه للمعجم القديم إلى معرفة وافية بأصول العربية وأبنيتها وما يكون منها مما ينبغي أن يعرفه صاحب هذه الصنعة العسيرة التي اقتضته تطويع الكلمة في هذا النظم العسير الذي لم يُتح إلا لصاحب طاقة وافية.

وربما فات الدارسين طوال العصور حقيقة عرف بها المعري دون غيره من الأعلام وهي: إنه عبقري جمع في فكره على "إضراره" ثروة لم تكن لغيره.

كان المعري من أصحاب اللغة الأفراد الذين استوعبوا من العربية ما لم يكن لسائر أهلها الذين عرفوا بفرائدها.

كان المعري نحوياً ضليعاً عارفاً بما ندعوه في عصرنا بالصنعة الصرفية، وهو من أصحاب العروض، وإذا قلت: إنه من أصحاب العروض فإنني أرمي إلى أنه أتقن هذه الصنعة التي عافها الكثيرون لعسرها.

إن "مقدمة" اللزوميات تشهد أن هذا الفريد الضرير قد أدرك أجزاء هذه الصنعة العسيرة. وقد تدرك عسر هذه الصنعة حين تقرأ كتب الطبقات في النحاة واللغويين فلا تقف فيها إلا على فئة قليلة منهم نعتوا بهذه الصنعة واستحقوا أن يقال فيهم "عرضيون".

لقد شق المعري على نفسه فاختار الصعب ليقول أو ليسجل لنفسه أن إضراره أي عماه لم يمنع من سطوع نجمه، ولم يكن كسائر من ابتلوا بهذه العاهة فقنعوا باليسير من العلم.

لقد عرفنا القليل ممن ابتلوا بالعمى فأدركوا بجدهم أن ذلك لم يمنعهم من مطاولة العمالقة العباقرة، وإني لأقف من ذلك على أعمى "دانية" وهو العالم اللغوي الأندلسي ابن سيده صاحب "المحكم" و"المخصص". وكيف ننسى الصفدي صاحب المطولات ومنها "الوافي بالوفيات" وقد أراد الصفدي أن يثبت لطائفة العميان شيئاً من السبق والبراعة فكان له كتابه الطريف "نَكْت الهميان في نُكَت العميان".

ولنا أن نلحق بهؤلاء المتقدمين البارعين الدكتور طه حسين الذي أحرز بجده واجتهاده وذكائه ما كان له أن يدركه من المكانة والبراعة. لقد رأى طه حسين في المعرّي ثائراً انتفض على ما ساد في عصره من مفاهيم، وهو في "سجنه" الذي فُرض عليه، وذاك الذي فرضه على نفسه.

وكأني ألمح ثورة أبي العلاء في طائفة مما ورد من شعره في اللزوميات، ذلك أني وجدته شديد الميل إلى الشيعة يمدحهم ويذكر رموزهم بإجلال وتقديس على نحو ما يفعل أولو الرأي من الشيعة. إن الشيعة طوال عصور إسلامية متلاحقة

يؤلفون عناصر المعارضة الذين يرون أن أئمتهم أصحاب الحق الذي ذيد عنهم، وهم من هنا تَشبثوا بالحق، وأكسبهم ذلك رأياً وتصوّراً تحول إلى ما يشبه العقيدة.

وأنت تدرك مدى انحياز أبي العلاء المعري إلى السعي المتطرف الذي نلمح وجوده لدى الطوائف المنحدرة عن الشيعة التي أكسبها التشيع خصوصية قد تكون غير ظاهرة لدى الشيعة الإمامية الاثني عشرية.

قلت: ندرك مدى انحياز المعري إلى هذه الممارسات في الاعتقاد[١] حين نراه أشد ما يكون قسوة على الملتزمين بالدين وينعتهم بالرياء والمروق والخروج عن جوهر العقيدة، وأنت تجده قاسياً على القائمين بالفرائض ومنها الصلاة، فهو يقول:

قد حُجِبَ النورُ والضياءُ   وإنما ديننا رياءُ
يا عالَمَ السوء ما علمنا   أن مُصَلّيكَ أتقياءُ
لا يكذبَنَّ امرؤ جهدك   ما فيك لله أولياءُ

وقال أيضاً:

أرائيك فليغفر ليَ الله زلتي   بذاك ودين العالَمين رياءُ
إذا قومنا لم يعبدوا الله وحده   بنصحٍ فإنا منهمُ بُرَءاءُ

وقد يذهب المعري من نقد الدين والملتزمين به إلى نقد الناس عامة فينال منهم ويتنقّصهم فيقول مثلاً:

---

(١) قلت: "هذه الممارسات في الاعتقاد" وأريد بها ما نعرفه لدى الجماعات المنحرفة التي تلحق بالشيعة، وهي قد تبتعد فيما يكون منها عن الشريعة الإسلامية كالإسماعيلية والنصيرية وغيرهما، والتي ما زال منها مما يشتهر بالدروز والعلويين وغيرهما.

أولـو الفضـل فـي أوطـانهم غُرَبـاءُ تشـــذّ وتنـــأى عـــنهم القُرَبـــاءُ
فمـا سـبأوا الـراح الكمُيـت للـذّةٍ ولا كـــان مـــنهم للخِـــراد سِـــباء

وهو في ذهابه إلى ذم الناس ينقلب إلى نفسه مكبراً مادحاً مفتخراً فيقول:

إذا مـا خَبَـتْ نـار الشـبيبة سـاءني ولـو نُـصَّ لـي بـين النجـوم خِبـاءُ
أرابيـكَ فـي الـودّ الـذي قـد بذلتُـه فأضـعُفُ إن أجـدني لـديك ربـاءُ
أجِـدَّكَ لا ترضَـى العَبـاءة ملعبـاً ولـو بـانَ مـا تسُـديه قيـلَ عَبـاءُ
تواصَـلَ حبـل النسـلِ مـا بـين آدَمٍ وبينـي ولـم يُوصَـل بلامـيَ بـاءُ
تَثـاءَب عمـرو إذ تَثـاءَبَ خالـدٌ بعَـدْوَى فمـا أعـدَتْنيَ الثُؤبـاءُ
وَزَهَّـدني فـي الخَلْـق معرفتـي بهـم وعِلمـي بـأنَّ العـالمين هَبـاءُ
ومـا أدَبُ الأقـوامِ فـي كـلّ بلـدةٍ إلـى المَـيْن إلاّ معشـرٌ أدَبـاءُ

أقول: لقد رأينا المعّري وهو في نظره إلى الناس وما يكون منهم، وإلى نفسه وما اختص به قد ذهب في هذا النظم الذي اجتهد فيه أن يظل مع الشعر جمالاً لفظاً وصياغة. وقد تجاوز هذا فشقي على نفسه فلزم الباء ثم جاء بعدها بالألف فالهمزة.

ولكن هذا "التعسف" لم يبعده عن صنعة الشعر، فظل شاعراً ولم يكن الفكر المنسم بالحكمة شاقاً على صنعته.

ثم إنه في نظره إلى الناس ليذهب إلى بسط معرفته فيهم من الناحية الاجتماعية التاريخية فيقول مثلاً:

وأرواحنـا كـالراح إن طـال حبسـها فـلا بـد يومـاً أن يكـون سِـباءُ
تعادَت بنو قيس بن عيلان بالغنى فثـابوا كـأنّ العسـجد الثؤبـاءُ

وقيس بن عيلان بطن من بكر بن وائل.

وقال:

سألت رجالاً عن مَعَدٍّ ورهطه وعن سَبَأ ما كان يسبي ويسبأ

وقالوا في "سبأ" هذا الذي أورده أبو العلاء المعري في هذا البيت إنه عبد شمس الذي غزا الديار المصرية وحمل منها الأسرى والسبايا فلقب "سبأ".

وأعود إلى سخط المعري على الناس ونيله منهم وبرمه بهم وبما درجوا عليه واعتقدوا في عاداتهم ونحلهم فأجده يغلو في دأبه هذا فيقول:

إن مازَت الناسَ أخلاقٌ يعاش بها فإنهم عند سوء الطبع أسواء[1]

وهو يبتعد عن الناس ويجعلُ بعده عنهم خلاصاً مما هم فيه من فساد فيقول:

بُعدي عن الناس بُرءٌ من سقامهمُ وقربُهُم للحجى والدين أدواء

وكما كان البُعد عنهم شفاء مما هم فيه من داء كذلك يكون التقّرب منهم مفسداً للعقل والدين، وهو يضرب في ذلك مثلاً ويشبه ما كان من بُعده عن سقامهم بما يعرض لبيت الشعر من إيطاء وسِناد وإقواء وذلك في قوله:

كالبيت أُفرِدَ لا إيطاء يُدركه ولا سِناد ولا في اللفظ إقواءُ

أقول: إن بعد الشاعر عن الناس ونيله منهم وشكه في دينهم وعقيدتهم ليشير إلى أنهم لا يعرفون الدين الصحيح فهم أهل رياء، كالبهائم لا عقول لهم، فيقول:

تعـــالَى رازقُ الأحيـــاء طُـــرّاً لقـــد وَهَـــت المـــروءة والحيـــاءُ
وإن المـــوتَ راحـــةُ هِبْـــرزيٍّ أضـــرَّ بلُبّـــه داءٌ عَيـــاءُ

---

(١) "أسواء" جمع سواء على غير قياس، ذكره أبو زيد.
أقول: إن ذهاب المعري إلى نوادر الكلم التي شغلت أهل اللغة لدليل على أنه أراد أن يكون من أهل العربية، وأن يندرج في جمعهم. ومن هنا كان المعاصرون بعيدين عن الحقيقة في عدّهم المعري شاعراً حكيماً، وليس الشعر إلا حاشية ضيقة في معرفة المعري الواسعة.

وقد فتّشت عن أصحاب دينٍ   لهم نُسُكٌ وليس لهم رياءُ
وألفيتُ البهائمَ لا عقولٌ   تُقيم لها الدليل ولا ضياءُ

وقد ذهب كثير من الدارسين إلى الشك في اعتقاده، وأنه منحرف وقد نسبوا إليه شيئاً ليذهبوا به إلى إلحاده، ولم يكن كما أرادوا لأنه يقول:

تَوَحَّدْ فإن الله ربّكَ واحدٌ   ولا ترغَبنْ في عشرة الرؤساء

غير أن المعري مرتاب في دين الكثيرين الذين وصفهم بالرياء في صلواتهم ونسكهم وقيامهم بالفرائض الأخرى، وهم في ذلك كله قد ارتضوا "عشرة الرؤساء" الذين حرفوا دين الله إلى ما يهوون، وقال مخاطباً أولئك الملوك:

يا ملوك البلاد فزتمُ بنسء العمر   والجور شأنكم في النَّساء
ما لكم لا ترون طُرقَ المعالي   قد يزور الهيجاء زير نساء

ويشير المعرّي بقوله: "زير نساء" إلى عدي بن زيد التغلبي (المهلهل) الملقب بـ"زير النساء". ولبرمه بالناس وابتعاده عنهم وجور الرؤساء وظلمهم ذهب إلى أن المظلومين راحوا يتشبثون بالإمام القائم الذي سيظهر في آخر الدنيا فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، إنه "الإمام المنتظر" لدى طوائف الشيعة، وهو الفكر الذي وجد فيه المظلومون فرجاً. إن هذا الفكر الذي يتشبث بالخلاص والنجاة قد عرفه غير الشيعة في عصور الظلم، فقد عرفنا شيئاً مثله لدى الأمويين عند مجيء العباسيين وفتكهم بهم فكان للأمويين المظلومين "السيفاني المنتظر".

وكان من هذا لدى النصارى حين نالهم ظلم اليهود وعسفهم، ومن هنا كان من ألقاب السيد المسيح "المخلّص".

قال المعرّي:

يرتجي الناسُ أن يقوم إمام   ناطقٌ في الكتيبة الخرساء

أقول: و"الكتيبة الخرساء" تعني الجيش الذي لا يسمع له صوت لكثرة الأصوات فيه و"الإمام الناطق" هو "المهدي المنتظر" ويسمونه "الإمام الناطق" لأنه يدعو إلى نفسه، وتسمّي هذه الطوائف الشيعية سائر أئمتهم "صمتاً" لصمتهم عن إقامة الدعوة حتى يظهر المهدي.

غير أن المعري الذي ذهب إلى هذه الإشارة التاريخية قد أنكر هذه الدعوة فقال في وضوحه وسعة نظره:

كَـذَبَ الظـنُّ لا إمـامَ سـوى العقـل مشـــيراً فـــي صُـــبحهِ والمســـاءِ
....
إنمـــا هـــذه المـــذاهب أســـبا بٌ لجَـــذْبِ الـــدنيا إلـــى الرؤســـاء

لقد رفض المعرّي هذا الذي تشبث به الشيعة أملاً بالخلاص والنجاة من الظلم الذي لحق بهم على أيدي خصومهم من الأمويين والعباسيين، وقال:

غَرضُ القوم متعة لا يرقون لدمع الشمّاء والخنساء
كالذي قام بجمع الزنج بالبصرة والقرمطي بالأحساء

وكأن المعرّي في هذه الإشارات التاريخية إلى صاحب الزنج[1] في البصرة وإلى القرمطي في الأحساء وهو حمدان قرمط، أراد أن يشير إلى أن الرؤساء قد أفادوا من إحساس الناس بالظلم فأفادوا من ذلك وترأّسوا عليهم فكان منهم ما كان من ثورة وخروج على السلطة الحاكمة.

(١) صاحب الزنج هو علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب أقول: لقد تكلموا في ادعائه هذا النسب العلوي كثيراً.

وكأنه أيضاً قد أدرك في نظره أن الظلم باق وأن الوجود للخلق مقترن بالظلم فقال:

ويـــا بـــلاداً مَشـــى عليهـــا أولـــو افتقـــار وأغنيـــاءُ
إذا قضـــى اللـــه بالمخـــازي فكـــل أهليـــكَ أشـــقياء
كـــم وعـــظ الواعظـــون منّـــا وقـــام فـــي الأرض أنبيـــاء
فانصَـــرَفوا والـــبلاء بـــاقٍ ولـــم يَـــزُلْ داؤكَ العَيـــاءُ
حُكـــمٌ جَـــرَى للملـــيك فينـــا ونحـــن فـــي الأصـــل أغبيـــاء

وقد ترى اضطراب أبي العلاء الذي أدى به حيناً إلى إنكار ما لم يكن طبعاً فيه[1]، لأنك تجده يقول:

مَـــن لـــيَ أن أقـــيم فـــي بَلَـــدٍ أُذكَـــرُ فيـــه بغيـــر مـــا يجـــبُ
يُظَـــنُّ بـــي اليُســـر والديانـــة والعلـــم وبينـــي وبينهـــا حُجُـــب
كـــل شـــهوري علـــيَّ واحـــدةٌ لا صَـــفَرَ يُتَّقَـــى ولا رَجَـــب
أقـــررتُ بالجهـــل وادَّعـــى فهمـــي قـــوم فـــأمري وأمـــرُهم عَجَـــبُ
والحـــق أنّـــي وأنّهـــم هَـــدَرٌ لســـتُ نجيبـــاً ولا هُـــمُ نُجُـــبُ

(١) أقول: لعل المعري بدأ اعتقاده بشيء من التشيع قريب مما لدى الإسماعيلية أو النصيرية، فقد نرى شيئاً من هذا في شعره في "سقط الزند" فقد قال يجيب الشريف أبا إبراهيم موسى ابن إسحاق عن قصيدة أولها:

غير مستَحسن وصال الغواني بعد ستين حِجّةً وثمانِ

فقال المعري في جوابه في قصيدته التي مطلعها:

علّلانـــي فـــإن بـــيض الأمـــاني فَنيـــت والظـــلام لـــيس بفـــاني
وعلى الدهر من دماء الشهيدين علـــيّ ونجلـــه شـــاهدان
فهمـا فـي أواخـر الليـل فجـران وفـــي أولياتـــه شـــفَقان
ثبتـــا فـــي قميصـــه ليجـــيء الحشـــرَ مســـتعدياً إلـــى الـــرحمن
يا ابن مستعرض الصفوف ببدرٍ ومبيـــد الجمـــوع مـــن غَطَفـــان

وأنت تجد في رثائه لأبي أحمد الملقب بالطاهر والد الشريفين الرضي والمرتضى من حماسة وتشيع صادق.

والحال ضاقت عن ضمّها جَسَدي فكيفَ لي أن يضمّه الشَجَبُ
ما أوسع الموت يستريح به الجسم المُعَنَّى ويخفُتُ اللَّجَبُ

أقول: تعرف هذا وتعرف غيره من شعره الذي تجد فيه صدقاً ومعرفة وإيماناً، وهذا يشير إلى اضطرابه واضطراب عصره، وما كان فيه من أخلاق الناس وبعدهم عن الصواب، وما كان من جور الرؤساء والملوك كما ذهب إلى هذا في شعر كثير، وقد مرّ بنا شيء منه، على أننا نجد إيمانه بقدرة الله وسلطانه في قوله:

انفرَدَ اللهُ بسلطانه فماله في كل حالٍ كفاءْ
ما خفيت قدرته عنكُمُ وهل لها عن ذي رشادٍ خفاءْ

وقال أيضاً:

بعِلم إلهي يوجد الضعف سيمتي فلستُ مُطيقاً للغدوّ ولا المسرَى
غَبَرتُ أسيراً في يديه ومن يكن له كَرَم تُكْرَمْ بساحته الأسرى
أأصبح في الدنيا كما هو عالمٌ وأدخل ناراً مثل قيصَرَ أو كسرى
وإني لأرجو منه يومَ تجاوز فيأمرُ بي ذات اليمين إلى اليُسرى
إذا راكب نالت به الشأو ناقةٌ فما أينقي إلا الضوالع والحَسْرى
وإن أعف بعد الموت مما يَريبني فما حظي الأدنَى ولا يَدي الخَسْرَى

أقول: في هذه الأبيات نجد إيمان المعرّي بالله واليوم الآخر، كما نجد أنه شاكٍ مما هو فيه، ومن نصيبه في دنياه. وقد يبلغ فيه الأسى مبلغه فيسخط على ما هو فيه فيدفعه ذلك إلى الإنكار وإلى ذمّ الناس وأخلاقهم، وهذا كثير، ومنه:

في البدوِ خُرّاب أذوادٍ مُسوَّمةٍ وفي الجوامع والأسواق خُرّابُ
فهؤلاء تَسَمَّوا بالعُدول أو التجار واسم أولاكَ القومِ أعرابُ

وهو في هذين البيتين يذهب أن البدو سُرّاق الإبل المسوّمة شأنهم شأن أهل المساجد وأهل الأسواق أو كلهم أهل حرام وباطل. وهو يقول مثل هذا:

ما قَرَّ طاسُكَ في كف المدير له إلاّ وقرطاسُك المرعوب مرعوبُ
تُضحي وبطنك مثل الكعبِ أبرزه رِيٌّ ورأسك مثل التَعْب مقلوب

إنه يشكو من أهل الحظوة الذين نعموا وفازوا في دنياهم هم الجهلاء الذين لا يملكون عقلاً ولا دراية.

وتقف في بعض "لزومياته" على فوائد لغوية فيها إشارات لشيء من المثل القديم وما يتصل به من فوائد تاريخية، ومن هذا قوله:

إن رابنا الدهر بأفعاله فكلّنا بالدهر مرتابُ
فاعفُ ولا تعتب عليه فكم أودَى به عوفٌ وعتّابُ[1]

ومثل هذا قوله:

أشأمُ من ناقة البسوس على الناس وإنْ يُنَلْ عندها الطَلَبُ

وأقول: إن هذا الذي شطح به أبو العلاء ودفعه إليه فكره الذكي الجّوال، ونال من الناس وما اضطربوا فيه من أمور دينهم ودنياهم، لا يعني كله أنه مارد ملحد مارق فهو القائل:

---

(١) أقول: جاء في المثل "لا حُرّ بوادي عوف" و "أوفى من عوف".
وهو عوف بن محلّم بن ذهل بن شيبان، أو هو عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وعتّاب كشدّاد من أسماء الصحابة، وفي الجاهلية هو جد عمرو بن كلثوم صاحب الفتكة بعمرو بن هند الملك، والقضية مشهورة.

خلِّنـــي يـــا أُخَـــيّ أســـتغفر اللـــه فلـــم يبـــقَ فـــيَّ إلا الـــذماءُ
إنّ دنيـــاك مـــن نهـــارٍ وليـــلٍ وهـــي فـــي ذاك حيَّـــة عَرْمـــاء
والبرايـــا حـــازوا ديـــون منايـــا ســـوف تُقضـــى ويُحضَـــر الغُرَمـــاءُ
وَرَدَ القـــوم بعـــد مـــا مـــات كعـــبٌ وارتـــوى بـــالنمير وَفْـــدٌ ظمـــاء[1]

ثم أنت في غير هذه الدنيا العربية حين تقرأ ما يقوله فيذكر سقراط وبقراط، وما كان من أمرهما فيقول:

ولـــم يـــدفع ردَى ســـقراط لفـــظ ولا بقـــراط حـــامَى عنـــه طِـــبّ[2]

وإذا نال المعري من ذوي التقى والورع وسخر منهم وارتاب في دينهم فقال مثلاً:

لعـلّ أناسـاً فـي المحاريـب خوَّفـوا بـآي كنـاسٍ فـي المشـارب أطربـوا
إذا رام كيـداً فـي الصـلاة مقيمهـا فتاركهـا عمـداً إلـى اللـه أقـربُ

أقول: إذا كان منه ذاك فإنه تجاوزهم أو قل جعلهم كسائر الناس الذين حمل عليهم ونال منهم ورماهم بكل ما ينأى بهم عن المروءة، وقد يكون منه أن أدرك السبب حين قال:

---

(١) أقول: كعب هذا هو كعب بن مامة أحد أجواد العرب في الجاهلية، خرج في بعض أسفاره ومعه رجل من النمر بن قاسط فقّل ما معهما من الماء فتناصفاه، فكان النمري يشرب نصيبه، فإذا أخذ كعب ليشرب قال له: اسق أخاك النمري فيؤثره على نفسه حتى جهد كعب ومات عطشاً فَضُربَ به المثل في الإيثار.

(٢) أقول: سقراط أعرض عن ملاذّ الدنيا وأعلن مخالفة قومه في عبادتهم الأصنام، وقابل رؤساءهم بالحجاج فأثاروا عليه العامة، فاضطرّ ملكهم إلى قتله، فحبسه وسقاه السم. (عيون الأنباء ٤٣/١).

مُــلَّ المقــام فكــم أعاشــر أمّــةً أمــرت بغيــر صــلاحها أمراؤهــا
ظلمــوا الرعيّــة واســتجازوا كيــدها فعــدوا مصــالحها وهــم أجراؤهــا

وكأنّ أبا العلاء المعري قد انتهى إلى هذا الارتياب بالناس عامة سواء فيهم الأمراء والرؤساء والدهماء، فقد خبرهم خبرة تجارب طويلة فبرزت له مساوئهم الكثيرة التي حملت الضيم على محاسنهم. وأنت لا تقف في صنعة أبي العلاء هذه التي شقي فيها غير تثريب وتعزيز وكشف للسوءات. وكأن الناس عامة جبلوا على السوء والمكر وسائر ألوان الشر.

قال:

رويــدَكَ قــد غُــررت وأنــت حــرٌّ بصــاحب حيلــة يعــظ النســاء
يحــرّم فــيكمُ الصــهباء صــبحاً ويشــربها علــى عمــدٍ مســاء

وهو القائل:

إذا كــان علــم النــاس لــيس بنــافعٍ ولا دافــعٍ فالخُسْــرُ للعلمــاءِ
قضــى اللــه فينــا بالــذي هــو كــائن فــتمَّ وضــاعت حكمــةُ الحكمــاء

غير أن المعري يبرم بما كان للناس وما أريد لهم فيعلو صوته جاحداً منكراً ويقول:

أفيقــوا أفيقــوا يــا غُــواة فإنمــا ديانــاتكُم مَكْــرٌ مــن القُــدَماء

قلتُ: إن المعرّي مشغول بسعة معارفه، ولعل من أبرزها إحاطته بالعربية إحاطة لا نجدها حتى لدى الذين اشتهروا بالعلم اللغوي من اللغويين والنحاة، وكأن

الذين ترجموا للغويين والنحويين قد أدركوا هذا الجانب من علوم المعري فأدرجوا المعري بين طائفة اللغويين والنحاة(١).

قال المعرّي:

والمِصْـر آنَـسُ منـه خَـرْقُ مفـازةٍ أنِـسَ الـدليل بقافهـا مـع طائهـا

أقول: كأن المعرّي قد أشار بقوله: "أنس الدليل بقافها مع طائها" إلى المثل القديم: "إنّه لأدلّ من قطاة"، وهو أن القطاة ترد الماء ليلاً من الفلاة البعيدة.

إن إفادة المعري من الإشارات بل الإيماءات اللغوية والتاريخية وسائر المعارف العلمية واضحة في "لزومياته"، وكذلك في "سقط الزند"، وقد يكون مما نحن فيه من الفوائد اللغوية قوله:

بُعدي من الناس بُرءٌ من سِقامِهُمُ وقـــربُهم للحِجـــى والـــدين أدواءُ

كالبيـــت أُفـــرِدَ لا إيطـــاء يُدركـــه ولا ســـنادٌ ولا فـــي اللفـــظ إقـــواء

أقول: لقد جاء في البيت الثاني مصطلح "الإيطاء" من مواد العروض، وهو أن يتكرر لفظ القافية ومعناها وليس بينهما غير بيت واحد، فإذا اتفق اللفظان واختلف المعنى لم يكن "إيطاء".

و "السناد": وهو كل عيب يحدث قبل "الروي" كإرداف قافية وتجريد أخرى.

و "الإقواء": وهو اختلاف إعراب القوافي.

وهذا كله من "عيوب القافية".

ومثل هذا في شعر المعري قوله أيضاً:

أكفـئ سَـوامَك فـي الـدنيا مياسـرة وأَعرضَنْ عن قوافي الشعر تُكفِئُها

---

(١) حفلت كتب طبقات اللغويين والنحاة بترجمات مفيدة للمعري. انظر "نزهة الألباء" و"إنباه الرواة" و"بغية الوعاة" وغيرها.

أقول: وفي هذا البيت قوله: "أكفئ" وهو أمر بـ"الإكفاء" والأصل في معناه من قولهم: أكفَأ الرجل غيره إبله، إذا أعطاه إياها يأخذ نتاجها عاماً، ولكنه في المصطلح "الإكفاء" في الشعر، وهو "الإقواء". ولعله من مصطلح الخليل بن أحمد ونقل أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء ويونس وغيرهم.

إن هذه الإيماءات تشير إلى سعة المعرّي في علوم العربية، وقد يكون كلامه في مقدمة "اللزوميات" خير دليل على إجادته العروض ومعرفة أسراره، إن هذه "المقدمة" تؤلف مادة كتاب في "العروض"، وتشير أيضاً إلى معرفته بالشعر القديم معرفة قل أن نعرفها لدى غيره من الشعراء.

ومن معارف المعري مما نجده في "لزومياته" معرفته بالأيام والشهور وما يتصل بها مما كان لدى العرب في علومهم، فهو يقول:

بَـدْءُ السـعادة أن لـم تُخْلَـقِ امـرأةٌ فهـل تَـوَدُّ جُمـادَى أنّهـا رَجَـبُ

أقول: لم يأت المعري بـ"جُمادى ورجب" لأن مقطوعته هي في الباء المضمومة مع الجيم، بل إنه قصد أن يهدي القارئ إلى دلالة كلّ من الشهرين.

إن "جمادى" شهران، وروي عن أبي الهيثم: "جُمادى ستّة" هي جُمادَى الآخرة، وهي تمام ستة أشهر من أول السنة، ورجب هو السابع، وجمادى خمسة، وهي الخامسة من أول شهور السنة، والشتاء عند العرب جمادى لجمود الماء فيه.

و "رجب": شهر سمّوه بذلك لتعظيمهم إيّاه في الجاهلية عن القتال فيه، ولا يستحلّون القتال فيه، وفي الحديث: رَجَب مُضَرَ الذي بين جمادى وشعبان، تأكيد للبيان وإيضاح له، لأنهم كانوا يؤخرونه من شهر إلى شهر فيتحول عن موضعه الذي يختصّ به، فبيّن لهم أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا ما كانوا يسمّونه على حساب النسيء...."[1]

---

(١) انظر مادتي "جمد ورجب" في "لسان العرب".

وقال في مقطوعة أخرى:

كلّ شهوري عليّ واحدةٌ لا صَفَر يُتَّقَى ولا رَجَبُ

و "صَفَر" ثاني الشهور العربية، كانت تتشاءم به العرب حتى جاء الإسلام فنهى عن ذلك فيما نهى عنه من عادات الجاهلية.

ويندرج في هذه المعرفة القديمة ما كان له من معرفة فلكية عرفها العرب في عصورهم القديمة وكان لها مصطلح خاص، فقد جاء في مقطوعة في الباء المضمومة مع الباء وياء الردف قوله:

ما الثريا عنقود كَرْمٍ مُلاحيُّ ولا الليل يانع غِربيبُ

طال ليلٌ كأنما العقربُ ساطٍ فغابَ عنّا الدبيبُ

أقول: و"الثريا": من الكواكب سُمِّيت لغزارة نَوئها[1]، وقيل: سُمِّيت بذلك لكثرة كواكبها مع صغر مَرآتها، فكأنها كثيرة العدد بالإضافة[2] إلى ضيق المحل، وهو تصغير على جهة التكبير.

و "العقرب": من منازل القمر.

والمعرّي في مقطوعته هذه على عادته في حشد المعارف الكثيرة، وهو هنا يشير إلى أعلام من الشعراء والفرسان والرجال الذين كان لهم حضور تاريخي، إنه قال في هذه المقطوعة:

سَلك النّجْدَ في فطار المنايا قَطَريٌّ ونَجدَةٌ وشبيبُ

شَبَّ فكر الحصيف ناراً فما يحسُنُ يوماً بعاقلٍ تشبيبُ

أين بقراطُ والمقلّد جالينوس هيهات أن يعيش طبيبُ

و "قَطَريّ" في البيت الأول هو ابن الفجاءة التميمي المازنيّ.

---

(١) أقول: "الثُريّا" مصغّر "الثرى"، "والثرى" هو التراب الندي، وقد أخذ العرب دلالة "الثروة" و"الثراء" من "الثرى" الذي هو التراب .. ووجه الشبه "الكثرة" ومن هنا كان معنى "الثريا" وهو مجموعة الكواكب لغزارة نوئها، وقد ربط العرب بين الغيث وبين الكواكب.

(٢) قوله: "بالإضافة" يراد بها ما يراد في العربية المعاصرة "بالنسبة" وليس معنى الزيادة.

و "نَجدة": هو ابن عامر الحروريّ.
و "شبيب": هو ابن يزيد بن نعيم، وهو المعني بقول الشاعر:
"ومنّا أمير المؤمنين يزيد".
وهو من فرسان الخوارج وخطبائهم[١].
و "جالينوس"[٢]: أحد مقلدي بقراط وهو خاتمة أطباء اليونان[٣].
ونجده كذلك في مقطوعة أخرى يكثر من هذا المصطلح الخاص فيقول:

أطـلَّ صـليبُ الـدلو بـين نجومـه ... يكـفّ رجـالاً عـن عبادتهـا الصُّـلبا
فـرَبّكُمُ اللـه الـذي خَلَـق السُّـها ... وأبـدى الثريـا والسـماكين والقَلْبـا
وأنحَـلَ بـدرَ الـتَمّ بعـد كمالـه ... كـأن بـه الظلمـاء قاصـمة قُلْبـا
وأدنـى رشـاءً للعَراقـي ولـم يكـن ... شـريعاً إذا نـصَّ البيـان ولا خلبـا
وألقـى علـى الأرض الفراقـد فارتعَـتْ ... مـع الفَرقَـد الوحشـي ترتقـب الألبـا
وأهـبطَ منهـا الثـور يكـرُبُ جاهـداً ... فتعلَـقَ ظلِفيـه الشـوابكُ والهُلْبـا
وأضـحت نعـام الجـوّ بعـد سـموّها ... سُـدًى فـي نعـام الـدَّوّ لا تـأمن الغُلبـا
وأنـزلَ حوتـاً فـي السـماء فضـمّه ... إلـى النـون فـي خضـراءَ فـاعترفَ السلبا
وأسـكَنَ فـي سُـكّ مـن التُـرب ضـيّق ... نجـومَ دُجًـى فـي شبـوة أبَـتِ الثَّلبـا[٤]

---

(١) انظر أخبار "شبيب" في "الكامل" للمبرد، وفي البيان والتبيين للجاحظ.
(٢) انظر ترجمته في عيون الأنباء ٤٣/١.
(٣) انظر ترجمته في المصدر السابق ٢٤/١.
(٤) أقول: إن استعمال المصطلح الفلكي في "اللزوميات" واكثاره منه لم يكن جديداً في صنعة المعرّي فقد عرفناه في "سقط الزند" في قصيدته النونية التي أجاب فيها عن قصيدة الشريف أبي إبراهيم موسى بن إسحاق، والتي ذكرنا منها أبياتاً اشتملت على شيء مما هو في أدب الشيعة في الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– وولده الحسين في أن كليهما ذهب إلى ربّه شهيداً.
قال المعرّي:

والشـخوص التـي خلقـن ضـياءً ... قيـل خلـق المـرّيخ والميـزانِ
قبـل أن تخلـق السـموات أو ... تُـؤْمَرَ أفلاكُهـنّ بالـدوران
لـو تـأتّى لنطحهـا حَمَـل الشـهب ... تـردّى عـن رأسـه الشّرْطـان

و"المرّيخ" معروف، وهو أحد الكواكب الذي أشار الشاعر إلى أن العرب اعتقدوا بقدمه.
و"الميزان" من الكواكب أيضاً.
و"حَمَل الشهب" هو برج الحَمَل، و"الشرطان" كوكبان يقال لهما "قَرْنا الحَمَل".

أقول: لقد حشد المعري هذا العدد الكثير من مصطلح الفلك ليشير إلى أنه من صنع الله تعالى الذي خلقها وصرّف أمرها في مسراها ومجراها، وفي هذه المقطوعة إيمان واضح بالله الواحد الأحد.

وقد جاء بهذا المصطلح الذي حفل بأسماء البروج والمنازل فأفاد منه في صنعته الشعرية في الاستعارة والطباق والمجانسة.

فالصليب: هو الشكل المعروف من الخشب وهو خشبتان أو نحوهما متقاطعتان، ومنه صليب الدلو.

و"الدلو" أحد البروج في السماء.

و"الكفّ" نجم كما أن الكف هو النهي وفي هذا مجانسة.

و"الصُّلْب": وهو الصُّلُب بضمتين وسُكِّن اللام ضرورة جمع صَليب، وهو مما يعظّمه النصارى لأنهم يعتقدون أن السيد المسيح صلبه اليهود عليه.

و"السُّها": كوكب خفي من بنات نعش الصغرى وقيل الكبرى.

وقد مَرّ بنا شرح "الثّريا".

و"السماكان": كوكبان نيّران يقال لأحدهما السماك[1] الرامح وللآخر السماك الأعزل.

و"القَلْب": قلب العقرب، منزلة من منازل القمر.

و"الدلو": من منازل القمر أيضاً.

---

(١) وقد ورد "السماك" وغيره في قوله:

والرزق يأتي ولم تُبسَط إليه يدي ... سيّان في ذاك إدنائي وإقصائي

لو أنه في الثريّا والسماك أو الشّعرَى ... العَبور أو الشعرَى الغُميصاء

والشعري العبور: هي الشعري اليمانية، والشعري الغميصاء وهي الشعرى الشامية، وهما كوكبان يطلع الأول في الجوزاء ويطلع الثاني في الذراع.

و"الرِّشاء"، و"الشريع" و"الخِلب" كلها من حبال الدلو، وقد أتى بها الشاعر مجانسة ليذهب بها إلى منازل القمر. وكذلك "العراقي"، جمع عُرقُوة، وهما خشبتان تعرضان على الدلو كالصليب.

و"الفراقد" جمع فرقد، نجم قريب من القطب الشمالي، والفرقد الوحشي: ولد البقرة الوحشية.

و"الثور": من منازل القمر، وأصله الحيوان المعروف.

و"الهُلْب": الشعر، معروف، وهو هنا كوكب.

و"الحوت": معلوم، وهو هنا من منازل القمر.

و"النون": الحوت أيضاً.

و"شبوة": أريد بها العلم على العقرب.

وأنت تجد من هذا المصطلح الفلكي في شعره: العقرب والصل وغيرهما. كما تجد "ليوان" وهو اسم "زُحَل" بالفارسية في قوله من مقطوعة:

لــو أنّ ســوادَ كِيــوانٍ خِضــابٌ بكَفّــكَ والسُّــها فــي الأُذنِ حُــبُّ

ولنا أن نتحول إلى معرفة أخرى من معارفه التي حفلت بها اللزوميات وهي الإشارة التاريخية إلى الأحداث والرجال، ومن ذلك قوله في مقطوعة:

إن رابنــــا الــــدهر بأفعالــــه فكلّنــــا بالــــدهر مرتــــابُ
فــاعفُ ولا تعتــب عليــه فكــم أودَى بــــه عَــــوفٌ وعَتّــــابُ

أقول: و"عَوف" هو الذي جاء في المثل: "لا حرّ بوادي عوف"، وجاء أيضاً: "أوفى من عوف"، وهو عوف بن محلّم بن ذهل بن شيبان، أو عوف بن كعب بن سعد بن زيد مَناة بن تميم.

و "عَتّاب" اسم لكثير من الرجال في الجاهلية والإسلام، وهو جدّ عمرو بن كلثوم الشاعر. وقال أيضاً:

إيّـــاك والخمـــرَ فهـــي خالبـــةٌ غالبـــةٌ خـــابَ ذلـــك الغَلَـــبُ
أشـــأم مـــن ناقـــة البســـوس علـــى النـــاس وإن يُنَـــلْ عنـــدها الطَلَـــبُ

أقول: و"البسوس" معروفة وهي بنت المنقريّ خالة جسّاس بن مرّة البكريّ التي هاجت بسببها الحرب المنسوبة إليها بين بكر وتغلب أربعين سنة، وضرب بها المثل في شؤم فقيل: "أشأم من البسوس"(١).

ومن هذا أيضاً قوله في مقطوعة:

إذا كان رُعْبي يورث الأمنَ فهو لي أسَرُّ من الأمن الذي يورث الرُّعبا
ألَـــم تَـــرَ أن الهاشـــميّين بُلِّغـــوا عظام المساعي بعدما سكنوا الشِّعْبا
وكـان الفتـى كَعْـب تخيَّـر للسُـرَى أخا النَّمْر فاستَدْنى إلـى أجلٍ كَعْبا

أقول: و"الشِّعْب: الطريق في الجبل، وقد أريد به هنا شعب أبي يوسف الذي أوى إليه رسول ﷺ – وبنو هاشم لما تحالفت عليهم قريش، وكتبوا في ذلك صحيفتهم المشهورة، وقد قال أبو طالب:

كَـذَبتم وبيـتِ اللـه نُبـري محمـداً ولمّا تَرَوا يوماً لدى الشعب قائماً(٢)

و"كعب" هو ابن مامة الإيادي أحد أجواد العرب، وقد خرج في بعض أسفاره ومعه رجل من النمر بن قاسط فقلّ ما كان معهما من الماء فتناصفاه، فكان النمري يشرب نصيبه فإذا أخذ كعب ليشرب قال له: اسق أخاك النمري فيؤثره على نفسه حتى مات عطشاً فضرب به المثل في الإيثار على النفس(٣).

ومن هذا قوله في مقطوعة:

اللـــــهُ ينقـــــل مـــــن شـــــا ءَ رُتبـــــةً بعـــــد رُتْبـــــهْ

---

(١) انظر: مجمع الأمثال.
(٢) أقول: والخبر مبسوط، واستوفاه السهيلي في "الروض الأنف".
(٣) انظر: "مجمع الأمثال".

أبـــــدَى العتـــــاهيّ نُســـــكاً وتـــــابَ مـــــن ذكـــــر عُتْبـــــهْ
والخـــــوف ألَـــــزَمَ ســـــفيا نَ أن يُغـــــرِّق كُتَبـــــهْ

أقول: وهو في قوله هذا يشير إلى أبي العتاهية الشاعر وإلى "عُتبة" جارية المهديّ، وكان يتعشّقها ويشبّب بها.

و"سفيان": هو ابن سعيد الثوري الكوفي[1] من أعلام المحدثين.

وقد تقف في "لزومياته" على شيء يدل على اضطرابه فيجد في بُعده عن الناس منجاة مما هم فيه من سوء وشر فيقول:

عصاً في يد الأعمى يروم بها الهدى أبـرُّ لـه مـن كـل خِـدْنٍ وصـاحبِ
فأوسِــعْ بنـــي حــوّاء هجــراً فــإنهم يسيرون في نَهْجٍ من الغدر لاحب
وإن غيّــر الإثــم الوجــوه فمــا تــرى لـدى الحشر إلا كل أسود شاحب
إذا مــا أشــار العقـل بالرشـد جَـرَّهم إلــى الغــيّ طَبْــعٌ أخْـذُه ســاحب

ويذهب إلى أبعد من هذا فيقول:

لـــو اتّبَعـــوني ويحهـــم لهـــديتُهم إلـى الحـق أو نَهـج لـذاك مُقـاربِ
فقـد عشــتُ حتــى ملّنــي ومَلْلْتُــهُ زمـاني ونـاجتني عيـون التجـارب
فمـنَ لـي بـأرض رَحْبـةٍ لا يَحلُّهـا ســـوايَ تضـــاهي دارة المتقـــارب[2]

(١) انظر" طبقات ابن سعد ٦/٢٥٧، المعارف ٢١٧، حلية الأولياء ٦/٣٥٦.
(٢) دارة المتقارب: وهي الدائرة الخامسة من دوائر العروض، وهو يقول: من لي بأرض واسعة لا ينزلها سواي كدائرة المتقارب المقصورة عليه دون غيره من البحور.

فمـــا للفتـــى إلاّ انفـــراد ووحـــدةُ إذا هـو لـم يُـرزقْ بلـوغ المـآرب[1]

وإلى مثل هذا جرى في شعر كثير له، ومنه:

ولـي مذهبٌ فـي هجريَ الإنـس نـافعٌ إذا القوم خاضـوا فـي اختيـار المذاهبِ

إنه هجرهم لبعدهم عن الحق وانحرافهم عن الهدى:

وإن بنـــي حـــوّاء زُورٌ عـــن الهـــدى ولو ضُرِبوا بالسيف ضرْبَ الغرائبِ

أقول: كأن المعرّي في "لزومياته"، وكان قد فارق الشباب ودرج في كهولته ومشيبه أفاد من تجاربه وعرف الناس فساء رأيه فيهم وعزف عن الدنيا ولذاتها وحبس نفسه على القليل من حاجاته. زهد في مأكله ومشربه وذم الخمر ورآها خالبة للعقل، وخُيل إليه أن عصره نهاية الدنيا لذيوع الشر، فقال:

تقـادَمَ عمـرُ الـدهر حتـى كأنمـا نجـوم الليـالي شـيب هـذي الغياهـبِ
يُهـوّد بـاغي الحـاج والليـل مُسـلم علـى كفـره والأرض فـي زيّ راهـب

وكأنه آمن أن الشرّ هو الغالب على الناس، وأنه يتعقب الخير ويقول:

لقـد تَرَفّـعَ فـوق المشـتري زحـل فأصـبح الشـر فينـا ظـاهر الغَلَـبِ
وإن كِيـوانَ والمِـرّيخَ مـا بقيـا لا يخليانـك مـن فجـعٍ ومـن سَـكَبِ

---

(١) أقول: إن ميله إلى الانفراد والوحدة والابتعاد عن الناس مما نجده في "اللزوميات"، وهو يناقض قوله في "سقط الزند":

ولـو أنـي حُبيـتُ الخُلد فـرداً لمـا أحبَبـتُ بالخُلـد انفـرادا
فـلا هطلتْ علـي ولا بأرضـي سـحائبُ لـيس تنـتظم الـبلادا

وهو هنا على ما درج عليه في الإفادة من المصطلح العلمي الذي عرضنا له في الصفحات المتقدّمة، وها هو يقول أيضاً.

يقولون صِنعٌ من كواكب سبعةٍ وما هو إلاّ من زعيم الكواكب
إذا رفَعت تلك المواكب قسطلاً فرافعه للعين مُجري الكواكب

أراد بـ"زعيم الكواكب" خالقها ... والقول بتأثير الكواكب مذهب قديم أبطله الإسلام.

وهو يؤمن بالعقل ويأخذ على الناس بعدهم عن العقل في سلوكهم ومعتقدهم، وهو في هذا استغفر الله مما لدى الناس في خروجهم عن الحق، ويقول:

متى عدّدَ الأقوام لبّاً وفطنةً فلا تسأليني عنهما وسَلي بي
أرى عالَماً يرجون عفو مليكهم بتقبيل رُكنٍ واتّخاذِ صليب
فغفرانَكَ اللهم هل أنا طارح بمكّة في وفدٍ ثياب سَليبي
عبيدُك جَمٌّ ربّنا ولك الغنى ولم تكُ معروفاً برقّ جليب

وقد تجد في بعض "لزومياته" رأياً في شعر غيره، وهو على عادته يتخذ من الأعلام أدباء وغيرهم رموزاً يفيد منها في أدبه، وها نحن أولاء نقرأ قوله:

وجدتُ عواريَّ الحياة كثيرةً كأنّ بقاء المرء شعر حبيبِ
وتلقاه من فرط الصبابة جاهلاً يُغيّر أعلى رأسه بصبيب

أقول: إن قوله: "شعر حبيب" يعني شعر أبي تمام حبيب بن أوس، وكأن المعرّي يومئ إلى ما عُرف عن أبي تمام من أنه كثير الإغارة على معاني غيره، فما يلبث أن يظهر ذلك لمستحسنها.

إن إيماءات أبي العلاء إلى الرجال الذين عرفوا واشتهروا بشيء مصدر من مصادر الشاعر في فكره وأدبه، إنها تظهر سعة معارف المعرّي فهو يقول مثلاً في ثالث بيت من مقطوعة هي أبيات ثلاثة:

والشرُّ ينشر بعد الخير ميّته كما أصاب عميراً ما جَنَى ضابي

أقول: عمير هو ابن ضابئ قتله الحجّاج بجناية أبيه ضابئ[1]، وكان أحد من شارك في مقتل عثمان بن عفّان، وحجته قوله:

هَمَمْتُ ولم أفعل وكدت وليتني تركتُ على عثمان تبكي حلائِلُهُ

وهو من أشراف الكوفة وخبره معروف.

ومن هذه الإيماءات قوله:

والناس كالخيل ما هُجْنٌ بمعطيةٍ في مَرْيها كعطايا آل حلاّب
استغفرِ اللهَ واترك ما حَكَى لهم أبو الهذيل[2] وما قال ابن كلاّب

أقول: الحلاّب: فحل من فحول الخيل، وكأنّ "آل حلاّب" الخيل المعروفة بهذا الاسم. وأبو الهذيل هو المعروف بالعلاف أحد متكلمي المعتزلة، وابن كلاّب هو عبدالله بن سعيد بن كلاّب من رجال الأشعرية، وقد فارقهم لآراء خاصة في علم الكلام.

وهو في إيماءاته المعرفية حاضر الذهن فيها، يقتنص منها ما هو شيء من المجانسة فهو يقول في أول بيتين:

---

(١) هو ضابئ بن الحارث التميمي البرجمي، شاعر، كثير الشر عاش في المدينة إلى أيام عثمان. انظر: المعاني الكبير لابن قتيبة ٧٣ و ٧٥٥ و ٧٦٣، ومعاهد التنصيص ١٨٦/١.

(٢) هو محمد بن الهذيل، من أئمة المعتزلة، توفي سنة ٢٣٥، انظر: وفيات الأعيان ٤٨٠/١، لسان الميزان ٤١٣/٥.

أسْــوانُ أنــت لأن الحــيّ نيّــتهم أســوان أي عــذاب دون عيــذاب

إنه جمع بين "أسوان" فَعْلان من الأسى، و "أسوان" بلد في صعيد مصر، فكان من ذلك مجانسة حرص عليها المعرّي، ثم إنه جمع بين "عذاب" وهو معروف و "عيذاب" من أسماء الحواضر القديمة في مصر على سبيل "الجناس الناقص".

ومن معارف المعرّي معرفته بالأنساب والقبائل فهو يقول:

ليــالٍ مــا تُفيــق مــن الرزايــا فــويحي مــن عجائبهــا ووَيْبــي
أعــادت أســدُها أســداً أكــيلاً وأودَى ذئبهــا بــأبي ذُويَــبِ

فقد جمع بين "الأُسد" جمع أسَد" و "أسَد" وهو أبو قبيلة من مضر، وهو أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، و"أسد" أبو قبيلة من ربيعة أيضاً.

ونقرأ في شعره جملة فوائد تتجاوز اللغة والتاريخ، بل إننا نرى في القصيدة أو المقطوعة إشارات نقدية أدبية إلى جانب نقده للناس وما هم فيه في سلوكهم ونظرهم، فهو يقول:

بنــي الآداب غــرّتكم قــديماً زخــارف مثــل زمزمــة الــذُبابِ[1]
ومــا شــعراؤكم إلاّ ذئــابٌ تَلَصّــص فــي المــدائح والسِّــباب
أضــرُّ لمــن تَــوَدّ مــن الأعــادي وأســرق للمقــال مــن الزَّبــاب
معــاذَ اللــه قــد ودّعــتُ جهلــي فحســبي مــن تمــيم والربــاب[2]

(١) أقول: لقد أشار المعري إلى صنعة الشعر فأخذ على كثير منها أنها "زخارف" وزينة ونعتها بـ "زمزمة الذباب". ونبز الشعراء بقوله: إنهم ذئاب شغلوا بالمديح والهجاء، وإن بعضهم لبعضهم ذئاب يتلصّصون، وهم أضر من الأعادي، يسرق بعضهم بعضاً فيأتي أحدهم بما قاله الآخر.

(٢) الرباب: أحياء ضبّة وهم تيم وعدي وعوف وثور، سُمّوا بذلك لأنهم تحالفوا مع بني عمهم ضبّة على بني تميم بن مرّ، فغمسوا أيديهم في رُبّ وتعاقدوا، أو لأنهم تَرَبّبوا أي تجمّعوا.

أحاديـــث الضـــباب وآل كعـــبٍ نبـــذتُ ســـوالكاً دَرَجَ الضـــباب[1]
ومـــا ســـمُ الحَبـــاب لـــديَّ إلاّ كـــنظمٍ قيـــل فـــي آل الحبـــاب[2]

ونمضي في هذه القصيدة وما اشتملت عليه في إيماءاتها التاريخية. وكأن المعرّي أراد في لزومياته أن ينقل صنعة الشعر من "غنائيتها" إلى فوائد معرفية يستعان فيها بالكلمة الجميلة تعريضاً وتصريحاً وتقريراً وإيماءً، ومن هذا قوله:

ليَعْـدُ مـع الضِّـباب سـليل حُجـرٍ وســائر قولــه فــي ابــن الضــباب

أقول: أراد بـ "سلسل حُجر" امرأ القيس بن حجر. و "ابن الضباب": هو سعد ابن الضباب الإيادي، سيّد إياد وكان أجار امرأ القيس لما فرّ من المنذر بن ماء السماء، وكان المنذر قد غزا كندة وأسر اثني عشر فتًى من ملولهم وقتلهم في مكان واحد بين الحيرة والكوفة، وكان امرؤ القيس معهم فهرب واستجار بسعد بن الضباب فأجاره.

ويقول:

فمـــا أمّ الحُوَيـــرث فـــي كلامـــي بعارضـــــــة ولا أمّ الرّبـــــــاب

---

(١) والضباب وآل كعب من القبائل المعروفة، وقد ذهب الشاعر من "الضباب" إلى مجانسة لفظية فأتى بـ "دَرَج الضباب"، والدَرَج: المشي، وقوله: "درج الضباب" مثل يضرب لمن شوهد منه أمارات الترك والهجر، يقال "خلّه دَرَج الضبّ" أي دعه يدرج دروجه ويذهب ذهابه، والهاء في "خلّه" تعود إلى الرجل.
وقيل في المثل: إن معناه "دعه في جُحره" وذلك أن الضب يحفر جحره درجاً بعضه تحت بعض، فإذا دخل لم يُدرك، فعلى هذا تكون الهاء في "خلّه" للسكت، أي خلّ دَرَج الضب، أي طريقه لئلا يسلك بين قدميك فتنتفخان، وعلى هذا فهو يضرب لمن طلب السلامة من الشر.

(٢) أقول: ويفيد المعري من التجانس بين اللفظين، فهو قد جمع في هذا البيت بين "الحُباب" بضم الحاء، وهو الحيّة و "الحباب" في قوله: "آل الحباب". و"آل الحباب" لا بد أن يكونوا جماعة من العرب ولكني لم أهتد إليهم.

أقول: كأنّ المعرّي أراد بـ"أم الحويرث" و"أم الرباب" جمهرة النساء، فهو كأنه قال: إن المرأة لا تشغله، وليس هو كغيره من الشعراء في صلاتهم بالمرأة. ولم يُرد بـ"أم الرباب" بنت امرئ القيس التي قيل فيها: إنها من أحسن النساء وجهاً وأفضلهن عقلاً وأدباً.

ثم إنه أراد أن يقول: إنه على غير ما درج عليه الشعراء في صنعتهم، وعلى غير ما درج الناس في سلوكهم وعيشهم، وإنه فريد في زمانه بما زهد فيه وعرف عنه، قال:

وإن مقاتـــل الفرســـان عنـــدي مصـــارع تلكـــم الغَـــنم الرُبـــاب[1]
وألفيـــت الفصـــاحة عـــن لســـاني مســـلّمةً إلـــى العـــرب اللبـــاب

شُـــغولٌ ينقضـــين بغيـــر حمـــدٍ ولا يـــــــرجعنَ إلاّ بالتبـــــــاب
ذرونـــي يفقـــد الهـــذيان لفظـــي وأغلـــق للحمـــام علـــيّ بـــابي

ونقرأ في مقطوعة أخرى أوّلها:

ادأبْ لرّبكَ لا يلومكَ عاقلٌ في سِجن هذي النفس أو إدآبها

أقول: في هذا البيت يشير إلى أن "النفس" محبوسة في جسم الإنسان، ومن هنا قال:

أرانـــي فـــي الثلاثـــة مـــن ســـجوني .....

وكأنه عدل بقوله هذا عن نعت نفسه بـ"رهين المحبسَين"

ونقرأ فيها قوله:

لا تـــأمنَنّ مـــن الـــدهور تغيّـــراً حتـــى تكـــون ظِباؤهـــا كـــذئابها
وبصـير فـي شـيبان مخبـأ غرسـها ويعـود مسـقط ثلجهـا فـي آبهـا[1]

(١) و "الرُباب" بضم الراء، جمع رُبَّى، وهي الشاة إذا ولدت، وإذا مات ولدها أيضاً والحديثة النتاج، وقد ساوَى في هذا البيت بين موت الفرسان وموت الرُباب، وهي الشياه التي ذكرناها. إنه يسخر مما درج عليه الناس فيما يرون ويفعلون.

أبقــت أحاديــث الرجــال وأهلكــت ســـلفي عُتَيبتهـــا وآل ذؤابهـــا[٢]

ومن إشارات المعري التاريخية التي أشار بها إلى معرفة مفيدة قوله في مقطوعة:

وإذا لصـوص الأرض أعيـت واليـاً ألقــى الســؤال بهــا علــى تَوّابهــا

أقول: قولـه: "علـى توابهـا" إشـارة إلـى "التوّابين" الـذين كـانوا لصوصـاً ثـم تـابوا فاستعملهم صاحب الشرطة مستعيناً بهم على معرفة اللصوص.

ثم إن حديث المعري في "اللزوميات" عن الدنيا وشرها كثير، فهو يخشاها لأنها سقم للإنسان تستعبده فتهلكه، فهو يعرض لها في كثير من "لزومياته"، فقد قال في إحداها:

لا تلـــبس الـــدنيا فـــإنّ لباســـها سَـقَم وَعَـرِّ الجسـم مـن أثوابهـا
أنـــا خـــائف مـــن شـــرّها متوقّـــع إكآبهـا لا الشُّـرب مـن أكوابهـا[٣]
جيبـــتْ فـــلاة للغنـــى فأصـــابه نَفَـر وصـين الغيـب عـن جُوّابهـا[٤]
آوى بهـــا اللـــه الأنـــام فمـــا أوَى لمحـــالفي دَدِهـــا ولا أوّابهـــا[٥]

---

(١) و "شيبان" اسم كانون الثاني أول شهور الشتاء، و"آب" من أشهر الصيف.

(٢) و "عتيبة": هو ابن الحارث اليربوعيّ و "ذؤاب": هو ابن ربيعة الأسدي.
أقول: لم يسع المعري في ذكره لهذه الأسماء من صنعته التي هي "لزوم ما لا يلزم" بل إنه أراد أن يوسع من دائرة الشعر فيجعله صنعة فنية تتسع لمعارف كثيرة.

(٣) ذهب المعري في هذا البيت إلى عسرة من البناء فجمع بين "الإكآب" من الكآبة وبين "الأكواب"، والجمع مقصود ذهب إليه ليقول للأديب من أهل العربية وبينهم الشعراء إنه بذّهم جميعاً، وملك عبقرية العربية.

(٤) وهو في هذا البيت وصل في بنائه إلى الجمع بين الفعل "جيبت" والاسم وهو "جُوّاب" جمع "جائب" إن هؤلاء "الجوّاب" لم يصيبوا ما أصابه نفر قليل من الغنى في الدنيا التي كانت للكثيرين "فلاة" غاب فيها ما حصل عليه القليلون.

(٥) ثم انظر إلى الفعل "آوى" متلواً بالجار والمجرور "بها"، وهذا يرمي إلى كلمة الروي وهي "أوّابها"، إنها لصنعة شاقة.

وهو يدعو إلى التخلص من هذه الدنيا الشريرة ولو كان الخلاص "غائلة الردى" فيقول:

أهـــلاً بغائلـــة الـــردى وإيابهـــا كمـــا تُسَـــتّرني بفضـــل ثيابهـــا
دنيـــاك دارٌ إنْ يكـــن شُـــهّادُها عُقـــلاءَ لا يبكـــوا علـــى غُيّابهـــا

وهو في صنعته في "اللزوميات" شق فيها على نفسه فأعمل الفكر ونقّب في نوادر معجمه مع التزامه أن يحافظ مع هذا النصب المضنى على ما يريد من معانٍ انفرد بها تتجاوز مادة الزهد في الحياة والبعد عن الدنيا وأهلها.

قال مثلاً في إحدى مقطوعاته:

خَبَـرَ الحيـاة شـرورها وسـرورها مـن عـاش عِـدَّة أو المتقـارب
وانَـــى بـــذلك أربعـــين فمالـــه عـــذرٌ إذا أمسَـــى قليـــلَ تجـــارب

أقول: أشار في البيت الأول إلى "المتقارب" وهو الذي يذهب إلى بحر المتقارب من بحور الشعر وهو مبني من "فَعولُن" ثماني مرّات، وعدد أحرف "فعولن" خمسة فتكون عدّة المتقارب أربعين.

قد أراد بهذه الصنعة أن صاحب الأربعين لم يملك من تجارب الحياة إلا القليل.

وقال في مقطوعة أشار فيها إلى شيء آخر من بحور الشعر مفيداً في معنى خاص من بنات أفكاره:

إذا أبْنـــا أبٍ واحـــدٍ أُفِيـــا جـــواداً وعَيْـــراً فـــلا تعجَـــبِ
فـــإن الطويـــل نجيـــب القـــريض أخـــوه المديـــد ولـــم يَنْجُـــبِ
ويشـجُبُ كـل امـرئٍ فـي الزمـان مِـــن آلِ عـــدنان أو يشـــجُبِ

وأنت هنا تقف على ما أراده من اختلاف ولدين من أب واحد أحدهما كان ذكياً "جواداً" خيّراً والآخر غبي لا نفع فيه كالعَيْر. وضرب لهذا مثلاً بالطويل

والمديد من بحور الشعر، وهما في دائرة الطويل في علم العروض مبني من فعولن مفاعلين، وهو كثير في الشعر أثير لدى الشعراء، والمديد قليل الاستعمال، ومستعمَله مجزوء، وقد أشار إلى هذه الحقيقة بقوله: "لم ينجب".

وجمع في البيت الثالث بين الفعل "يشجب" بمعنى "يهلِك" و"يشجب" وهو ابن يعرب بن قحطان أبو اليمانية، وقد سبقه بـ "عدنان" أبو المَعَدّية.

أقول: هذه الإشارات التاريخية التي تتصل بالرجال من الأعلام وبالقبائل وأنسابها والأقوام والطوائف نجدها في سائر مقطوعاته وقصائده في "اللزوميات".

الخلاصة:

إن "اللزوميات" مصدر وافٍ لكثير من المعارف، وهي بهذا تتجاوز حدود مجموعات الشعر ودواوينه. إنه وثيقة مهمة أراد بها أبو العلاء أن يظهر على رجال عصره من أهل العلم كافة.

ثم إنها مصدر للعربية نجد فيها الفرائد والنوادر مما لا نجده في كتاب من كتب العربية، وكان له فهم في التصرف بهذه الثروة اللغوية.

ثم إنك إذا عرفت أن له من مصنفات النحو عدداً عرض فيها لآراء النحاة ووقف من "كتاب" سيبويه وقفات غير التي ذكرها شرّاح "الكتاب" أدركت أنه أحد علماء العربية الذي اجتمعت له علوم العربية، وقد تدرك هذا من أنه امتلك من علوم العربية قدراً لم نجده لدى الكثيرين من أهل هذه الصنعة فهو لغوي صاحب معجم واف فريد في سعته وخصوصيته، وهو نحوي ضليع تصدّى لكتاب سيبويه شارحاً يمتلك نظر المختص، وهو عروضي قل أن يضارعه في هذا الفن أصحاب الصنعة الذين عرفوا بها. إن مقدمة "اللزوميات" تظهر سعة إدراكه لهذا الفن. وقد أشار إلى شيء من لطائف هذه الصنعة في مقطوعات "لزومياته" وهو القائل:

وقد يخطئ الرأيَ امرؤ وهو حازم كما اختلَّ في وزن القريض عَبيد

و "عبيد" هو ابن الأبرص أحد أصحاب المطولات المشهورة الذي وقف أهل العروض غير مهتدين إلى وزن قصيدته التي مطلعها:

أقفَرَ من أهله ملحوبُ فالقُطَّبِياتُ فالذَنوبُ

وكأنّ المعري أراد في "لزومياته" أن يقول: إن الشعر ليس الأغراض التي درج عليها الشعراء قبل زمانه وفي عصره، بل إنه يتجاوز القول الذي ذهب إليه أهل السعة من "أنه ديوان العرب".